أغنية الرياح الأربع

أخرج شاعر اللذة والجمال الأستاذ على محمود طه روايته المصرية الشعرية « أغنية الرياح الأربع » فى ثلاثة فصول تتسم بسمات الفن الرفيع الذى عرفه القراء فى كل ما صدر عن هذا الشاعر المبدع . وقعت حوادث هذه الرواية منذ أربعة آلاف عام على شواطىء البحر الأبيض من السواحل الفينيقية إلى السواحل المصرية . ولهذه المسرحية الباسقة الفروع الدانية القطوف نواة من أصل تاريخى عثر عليه الأثرى الكبير الأب « دريتون » عام ١٩٤٢ ، فنقله من اللغة المصرية إلى اللغة الفرنسية ؛ ثم نشره فى كتيب صغير قدم له بكلمة شارحة نقتطف منها ما يأتى :

« أغنية الرياح الأربع تقوم على الحوار ، فبعد أربع مقطوعات تغنى كلاً منها فتاة ، يدخل رجل فيحييهن ويشرع فى خطفهن ليستولى على الرياح الممثلة فيهن ، فيغريهن بإثارة الفضول فى نفوسهن ، وذلك بأن يعرض عليهن زيارة سفينته (وتلك كانت خطة البحارة الفينيقيين فى عهد هذه الأغنية يلجأون إليها عند ما يريدون اقتناص الجوارى من بلاد البحر الأبيض) ، ولما قوبل طلبه بالرفض ، لم يستسلم للهزيمة كما هو واضح من المقطوعة الأخيرة فى الأغنية « إن وسائلى لا تنفد » ، ولكن لسوء الحظ لم نعثر على تكملة الأغنية والوسائل التى لجأ إليها الرجل ، وأكبر الظن أنها مما يثير الشراهة (Gourmandise) التى تكشف مواطن الضعف فى النساء .

ويبدو من قراءة هذه الأغنية أنها لم تصل إلينا كاملة ، بل امتدت إليها يد التغيير ، تشهد بذلك مقطوعتها الثالثة التى تتغنى بريح الشرق فإنها تزيد على المقطوعات الأخرى ، وربما تعمد ذلك الذى قام بجمع أجزائها حتى تبدو هينة سهلة .

ومهما يكن من أمر هذا الحذف فإن هذه الأغنية قد وسمت من آفاق معارفنا عن أقدم نصوص الأدب المصرى وأضافت إلى معلوماتنا شيئاً جديداً جديراً بالتقدير .

ولسنا مغالين إذ نقول إنها أثبتت وجود شعر غنائى ملىء بالخيال والعذوبة فى مثل هذا العهد البعيد » .

٢١ . ٣٢

ونص أغانى الرياح كما عثر عليه الأب دريتون :

تقول الفتيات إنهن أُعْطِينَ هذه الرياح

فهذه ريح الشمال التى تُطوِّق بحر إيجه

والتى تمد ذراعيها فتبلغ أطراف مصر

والتى تخلد إلى النوم بعد أن تترك فى نفس الصديق البهجة التى يأنس إليها[1] كل يوم

إنها ريح الحياة أُعْطِيتُها وبها أحيا

تقول الفتيات : « لقد أُعطينا هذه الرياح »

وهذه ريح الشرق التى تُفتِّح طاقات السماء[2]

والتى تَهب الشرق أنفاسَه

والتى تَهبُّ مع الشروق وتصحب الشمس إلى مَحوتها[3]

أمسكت الشمس بيدى

وهيأتْ لى فى ساحتها مكانا[4]

حيث أقبل على الطعام بشغف كما يقبل أبيس[5]
وألتهمه فى نهم كما يفعل « سيت »

إن ريح الشرق هى ريح الحياة أُعطيتها وبها أحيا

تقول الفتيات : « لقد أُعطينا هذه الرياح »

وهذه ريح الغرب شقيقة « ها » وسليلة « ياو »[6]

والتى جعلت من جسد الآلهة موطناً لها تعيش فيه

---

(١) يعنى أن ريح الشمال تهب عند غروب الشمس من كل يوم وتستمر حتى وقت متأخر من الليل فتلطف حدة الحرارة فى أشد أيام الصيف

(٢) هى الطاقات التى تدفقت منها المياه إلى الأرض فى عهد طوفان نوح ولم يأت ذكرها عند قدماء المصريين إلا فى أقدم نصوص الأهرام .

(٣) تقطع الشمس رحلتها فى السماء من الشرق إلى الغرب ، فريح الشرق إذن هى أكثر الرياح ملاءمة لها

(٤) تقول أساطير القدماء إن الشمس Ré تملك فى السماء قصراً وساحة

(٥) المعروف أن « أبيس » كانت له فى الطعام شهية قوية ، وأن « سيت » كان جشعا يأكل بشراهة

(٦) ها Ha آلهة ليبية تسيطر على الصحراء الغربية ، أما Javou ، فآلهة غير معروفة